

ابن عربي الأندلسي: انغلاق رحلة و انفتاح خطاب في رواية "موت صغير" لمحمد حسن علوان

Ibn Arabi Andalusian : The closing of a journey and the opening of a speech in the novel "Mawt Sghir " by Muhammad Hassan Alwan

د. هشام بن سعدة*

المركز الجامعي مرسلتي عبد الله- تيبازة bensaada.hichem@cu-tipaza.dz

تاريخ النشر 2022/06/16

تاريخ القبول 2022/01/12

تاريخ الارسال 2022/05/04

ملخص:

تتعدد الحوافز و المصوغات التي توجه الساحة الأدبية اليوم نحو التجربة العرفانية، و تتنوع الخلفيات التي أسهمت في الإفادة من منجزاتها و مكتسباتها، و لعل الرواية العربية المعاصرة هي الشكل الأدبي الأكثر استيعاباً لهذا الخطاب البكر، و بنفس الاهتمام نجد الكاتب السعودي محمد حسن علوان في روايته "موت صغير"، قد أدرك هذا التوجه بحسه الفني من أجل ارتياد أفاق التعبير الروائي العالمي، وهو يكتب فنياً تجربة روحية استثنائية لحياة الفيلسوف محي الدين ابن عربي، من هنا اهتمت هذه الورقة البحثية لاستكشاف و قراءة العوالم الدلالية داخل الرواية، التي تمتع مضامينها من المتون التراثية، من أجل التقرب أكثر من التفكير الذهني التأملي للكاتب الروائي و هو يشيد بناءه المعرفي و التخيلي داخل المتن.

الكلمات المتاحية: ابن عربي الأندلسي، انغلاق رحلة، انفتاح خطاب، موت صغير، محمد حسن علوان.

Abstract:

Various are motives and formulations that guide the literary scene today towards the cognitive experience, and the backgrounds that contributed to benefiting from its achievements and gains are several. May be the contemporary Arab novel is the most accommodating literary form of this virgin discourse.

With the same interest, we find the Saudian writer Muhammad Hassan Alwan, in his novel "Mawt Sghir", This inspired this research paper In the aim to explore and read the semantic worlds within this novel, which contents are available from the patrimonial texts, in order to get closer to the contemplative mental thinking of the novelist as he founded his cognitive and imaginative structure within the text.

Keywords: Ibn Arabi Andalusian , a cognitive experience, openness of speech, a novel, a small death, Muhammad Hassan Alwan.

1. مقدمة:

تعدُّ الرواية المعاصرة بنية فنية دالة، والبناء فيها يحيل في عرف التحليل العلمي إلى صياغة جديدة لقيم معروفة، ليس غريباً إذن، أن تنخرط الكتابة الروائية العربية ضمن هذا المسعى، و تحاول عبر مسالك التجريب، تعقب و توظيف مختلف الخطابات المعرفية، التي تثري تجربة الكاتب الإبداعية و سعيه الدؤوب نحو التباين و الاختلاف. و أحسب أن اشتغال المحكي الروائي على المتن التراثي - خاصة في حقله العرفاني - و عوالمه الدلالية أصبح مبلغ كل كاتب طموح يتجاوز المستوى السطحي لهذه التجربة، بما يدعمها من رؤية فنية و جمالية موازية، و لعل رواية **موت صغير** للكاتب السعودي محمد حسن علوان التي نسعى لفتح أفقها السردية هي نموذج لهذا التحول في الكتابة الروائية العربية.

لقد استطاع متن "**موت صغير**" بذكائه الفني المتميز أن يسرد تجربة روحية فريدة لأحد أشهر المتصوفين الأندلسيين **محيي الدين ابن عربي**، و إن اختلف ممتحنوا النقد في عدّة جوانب متعلقة بها، فإن ما أثار انتباهي من هذه الجوانب، هو طريقة ابن عربي في نسج معان متباينة للحب، و التسامح، و المعرفة، و هي معان كفيفة بأن تقدح زناد التفكير في توجهات الكتابة الروائية الجديدة، التي تعتمد في إنشاءاتها السردية على إمكانات معرفية و فنية شديدة الخصوصية، و مادام الخطاب هو المرادف لطريقة المحكي، فقد تولد لديّ همّ أولي هو كيف تفصح الرواية بما هي خطاب تخيلي، عن علاقتها بالخطاب العرفاني؟ و ماهي المصوغات التي نتوسل بها، لنعيد صياغة مراتبه الحوارية بأوضاعها الجديدة؟ أوضاع تتطور فيها الأحداث بموجب قانون خاص، الأول في مستواه العاطفي/ فعل الحب، و الثاني في مستواه المعرفي/ فعل المعرفة، ثم تجليات هذين المستويين في كفاءته التنظيمية من جانب المرسل، و كفاءته التأويلية من جانب المتلقي.

2. التجربة العرفانية في الرواية العربية:

أسهمت التجربة العرفانية في بعدها الروحي و الإنساني عند أهل التصوف من المسلمين، في شحذ همم الكثير من المبدعين العرب في تمثل الوقائع و المضامين التي تُكون عالم النص الروائي و تميزه، و هي فرصة بالنسبة لي كباحث، من أجل قراءة سمة معينة أصبحت تثير الكثير من الأسئلة في ساحة النقد العربي المعاصر، لعل في مقدمتها إشكالية تخيل التجربة العرفانية في الرواية العربية، بما هي مساحة نصية مشتركة بين التاريخ و الأدب، و فتح أفاق ثرية في توظيف أعلى مراتب الحوارية التي تحرك السرد العربي في بناء صوره و تمثيلاته للذات و الآخر، ضمن متغيرات ما بعد الحداثة التي تحرر فيها الروائي العربي من هيمنة المركزية، سواء منها المركزية الأوروبية أو مركزية التأريخ، ليرتاد مناطق "جديدة" من الوعي والحساسية في موروثنا العربي الإسلامي، و يعمق الرؤية أكثر و يثير الأسئلة الكبرى.

و لما كان عملي يشغل ضمن هذا الأفق فلا يمكنني أن أغض النظر في الدراسات التي بدأت تتشكل في هذا السياق، و لعل المثير للجدل منها، هو مشروع الباحث الأكاديمي عبد الإله بن عرفة الموسوم "الرواية العرفانية" و ما يثيره من سجال في المنتديات العلمية من حيث مصدره (الفواتح النورانية القرآنية)، و هو مشروع في نظري مازال يكتنفه الغموض في نسبته إلى الجنس الروائي، فهو من جهة يثير المعرفة العرفانية كعلم قائم بذاته، و من جهة أخرى أجده يتجاهل الجانب التخيلي في صياغة تلك المعرفة الروحية. و في اعتقادي أن توظيف البعد العرفاني في الرواية العربية يستدعي تبسيطاً في موضوعات ليست بسيطة أبداً، كيف ذلك؟ إن "العرفان النظري" هو تلك المعارف التي يصل إليها العارف بسيره و سلوكه، بينما فلسفة العرفان هي تلك القراءة للمدرسة العرفانية من خارج تلك المدرسة¹، إذ أن الكاتب الروائي الذي يشغل في ضوء هذه السير و المعارف هو قارئ لها فحسب، لكن عند بداية اشتغاله على عمل فني في ضوء تلك المعارف، فهو يقوم بعمليتين، مرة يسرد قراءته لتلك التجربة، و مرة أخرى تخيله لتلك القراءة.

إن فهم الخطاب الروائي يتم أولاً عبر فهم حيثيات إنتاجه و مراتبه الحوارية، و لهذا رأينا أن ننطلق في عملنا هذا من حدّ الرواية التاريخية و ما تثيره من أنساق تعبيرية، خصوصاً تلك النصوص التي تمتح مضامينها من المعجم الصوفي و التي برع الكاتب محمد حسن علوان عبر متنه "موت صغير" في صياغة أحداثها، من خلال خطاب روائي يقتحم مناطق التجريب و المخاطرة، و لا نحصر معنى التجريب ههنا في ثراء المستوى الأسلوبي، وارتداد آفاق جمالية غير مطروقة فحسب، بل يتجاوز ذلك إلى مستوى التجربة الوجدانية و الروحية التي نتعرف من خلالها على أحوال أهل التصوف و مقاماتهم و مواجدهم، و القواعد السلوكية التي تحقق للصوفي درجة الكمال الروحي.

و في رواية "موت صغير" يتبنى الكاتب نفس الحبكة التي انتهجتها الباحثة والأكاديمية الفرنسية كلود عدّاس في كتابها "ابن العربي أو البحث عن الكبريت الأحمر" من حيث تقسيم الفصول وتتبع السيرة الإنسانية لابن عربي. ومحاولة محمد علوان في الإقتراب أكثر من عالم الكشف المعرفي²، هي محاولة رائدة وذكية في تقديم هذا العالم فنياً ومعرفياً، تقول أستاذة الفكر الصوفي في الجامعة العربية الألمانية، الدكتورة سعاد الحكيم في تقديمها للنسخة العربية الثانية والموسوم بـ "ابن عربي: سيرته وفكره"، أن ابن عربي "سيرة شخص أدرك أن حياة الإنسان، في النجاح والفشل وفي الرفع والخفض، محكومة للسُنن الإلهية الثابتة. وأن بإمكان الإنسان أن يجعل حياته على هيئة مسيرة صعود لا نهاية لحدوده ولا انتكاس لخطاه، إن هو راعى السُنن الإلهية في استقبال النعم والمواهب الربانية. وبالفعل. فقد دَوّن ابن عربي اسمه بأحرف من نور في سماء جبل قاف الذي يحيط بعالم الإنسانية. بحسن استقبال كل منحة ربانية بالحفظ والتنمية"³.

ليست التجربة الصوفية إذن مجرد تجربة في النظر، و إنما أيضاً، تجربة في الكتابة، عند الكثير من الكتاب الروائيين العرب الذين حاولوا تنظيم تلك الإشارات بين الصوفي و عالمه الخارجي بلبوس فني أدبي بعيداً عن الإكراهات التي يفرضها التعبير المباشر، و ما دام العرفان في الأدبيات الصوفية ينحو منحى التأسيس للمفاهيم المتصلة بالتجربة الدينية، كان لزاماً أيضاً تأمل اللغة من حيث كونها باباً للتجربة و وسيلة كشف لها. يقول

الجابري: " هناك في الظاهرة العرفانية جانبان متميزان : العرفان كموقف من العالم، و العرفان كنظرية لتفسير الكون و الإنسان، مبدئهما و مصيرهما "4 هذه السمات الجمالية و المضمونية نجد لها قدرة على تفسير المعرفة الإلهية الذي يقدمها من جهة و من جهة أخرى معرفة طريقة استحضار الكاتب محمد حسن علوان للتجربة العرفانية _ التجربة الروحية _ للعالم و العارف محي الدين ابن عربي ضمن مقتضيات الفن الروائي.

إنني إذ أقدم هذه الورقة البحثية بصورتها الراهنة، فأني على يقين أن المتن الروائي "موت صغير" لا يصور حركة الرواية العربية في تمثيلها للتجربة الروحية فحسب و إنما يصور حركة ذهننا و تنقله بين الأفكار و المقولات، التي اجتهد الكتاب الروائيون العرب في احتوائها معرفياً و نسجها فنياً، نذكر من هذه الأعمال على سبيل المثال لا الحصر و حسب الترتيب الزمني لإصدارها : رواية "رحلة ابن فطومة" لنجيب محفوظ عام 1983 و رواية "مخلوقات الأشواق الطائرة" لإدوارد الخراط عام 1990، و رواية "الولي الصالح يرفع يديه بالدعاء" لطاهر وطار عام 2007، و رواية "الأطلسي التائه" لمصطفى لغيتري عام 2015، لنكتشف في ضوء الدراسات التي تناولت هذه الأعمال نضج فني و احتشاد أدبي كبيرين، يثير فينا الرغبة أكثر في اكتشاف تراثنا و فتوحاته المتنقلة بين الدين و الأدب و العرفان و الفلسفة، و لعل هذه التجارب الإبداعية المتميزة كتابة و فكراً، هي ما يحفز الخطاب النقدي لتجديد آليات اشتغاله بما يتلاءم و واقع النصوص الجديدة.

إن مظاهر تعامل الرواية العربية مع الميراث الصوفي متعددة و يتخذ صيغاً و أشكالاً مختلفة، و بناء على ذلك، تراهن كل تجربة على صياغة تجربة مغايرة للتجارب السائدة، تجربة لها كيانها الخاص و نكهتها المتفردة، يقول محمد بن طيب " استأثر تراثهم الثري بعناية الدارسين من العرب و العجم، فانجذبوا إليه و فتنوا به لخصوصيات فيه تميزت عن سائر مجالات الثقافة الإسلامية سواء أكان ذلك في محتواه المعرفي أم في بنائه الأسلوبي، و ربما كان مرد الجاذبية فيه إلى غموض أسرارهِ و جمال تعبيرهِ "5 لذا يمكن القول أنّ محمد حسن علوان كاتب أصيل يتكئ على الموروث التاريخي القابل للحياة، انطلاقاً من النسيج المحكم في متنه **موت صغير** الذي يجمع بين الحوادث و الشخصيات و الأفكار، في البيئة الخاصة التي اختارها الكاتب.

و في تقديرنا أن التجريب عند محمد حسن علوان يتأسس عبر مغامرة اللغة و الإبحار في منعرجاتها و تضاريسها، و هو مسعى يهتم فيه الكاتب بالمضمون الدلالي للنص، و طرق الترابط بين أفكار النص من ناحية و بينها و بين معرفة العالم من ناحية أخرى، تلك المعرفة التي تتجلى في ضروب الفهم و التأويل داخل المتن الروائي، يشير فان ديك أن " توالي الموضوع و تسلسله في ضروب الخطاب الجارية على قواعد مرسومة يجب أن يستوفي عدداً من الشروط الشبيهة بتلك التي تعين استقامة خطية الربط و اتساق الجمل "6، و هو نفس النسق الذي نسعى إلى فتح أفقه في هذه الورقة البحثية، إنه حقل دلالي متسع جداً، يستلهم فيه المتن الروائي "موت صغير"

تجربة عالم الدين الصوفي "ابن عربي" الذي يبدو أنه يحتشد بتفاعلات نصية حاول الروائي أن يحتوي مضامينها و يغذي من خلالها الأنساق و الرؤى داخل المتن .

3. شخصية "ابن عربي" في رواية موت صغير (أفق التمثيل و أبعاد التجربة) :

إن الرواية "موت صغير" هي سيرة روائية متخيّلة لحياة الشيخ الأكبر محيي الدين ابن عربي منذ ولادته في الأندلس في منتصف القرن السادس الهجري إلى وفاته في دمشق، يسرد فيها محمد حسن علوان شخصية الشيخ الأكبر و رحلته بحثاً عن أوتاده الأربعة، و الأوتاد هم ثلاثة رجال، أما وتده الرابع فهي امرأة فارسية تدعى "نظام" ابنة شيخه "زاهر الأصفهاني" التي كتب فيها قصائد عشق و لوعة جمعها في ديوان سماه "ترجمان الأشواق"، قبل أن ينكشف له بأنها وتده، و الأوتاد يتزوجون الأرض لا البشر.

هكذا تشكل "المفارقة" علامة مميزة في طبيعة العلاقة بين ابن عربي و باقي الشخصيات داخل المتن، حيث يصعب أو يتعذر توقع الأحداث و مصائر الشخصيات، و هي نفس المفارقة التي يثيرها والتر تيرينس ستيس - Walter Terence Stace و يعتبرها بمنزلة الخصوصية العالمية للتجارب العرفانية. إن بوصلة العرفان في رواية موت صغير تتجه دائماً صوب البحث عن الذات، و في الوقت ذاته هي حياة مزدحمة بالرحيل و السفر "مشيت قبل أن أتم عامي الأول. نهضت من حبوي ذات مساء لا متميلاً و لا متعثراً و مشيت كمن هو في الثانية أو الثالثة من عمره . ضحكت فاطمة و تنبأت لي أن أرحل بعيداً ففعلت. منذ أوجدني الله في مرسية حتى توفاني في دمشق و أنا في سفرٍ لا ينقطع"⁷.

حضور السفر هنا، لا يقتصر على كونه سفر الأبدان في متن يثير تجربة روحية للإمام محيي الدين ابن عربي، بل يتعدى ذلك نحو سفر وجداني يأخذ المتلقي إلى مدارج الحقيقة الروحية " خرجت معنا على بغلة فاطمة بنت المثنى عازمة أن تفترق عن القافلة باتجاه قرطبة و عندما حان ذلك المفترق و انقسمت القافلة إلى نصفين متساويين تقريباً سلّمنا عليها جميعاً. و لما جاء دوري قالت فاطمة :

- ادنُ مني يا بني.

- لبيك يا أمه.

- في إشبيلية وتدن من الأوتاد الأربعة و لا شك

- و من هم الأوتاد ؟

- أربعة يحفظون الأرض من السوء

- و كيف أعرفهم ؟

- هم يعرفونك.

- و كيف أجدهم؟

- هم يجدونك.

ضمّنتني إليها طويلاً حتى مللت. و دسّ كَفّها في صدري و أغمضت عينيها و قرأت فاتحة الكتاب ثم نقرت بإصبعها على موضع قلبي تماماً و قالت :

- طَهّر هذا ... ثم اتبعه. و عندها فقط يجذك وتدك".⁸

لا غرابة أن نجد في الحوار الدائر بين "محيي الدين" و مرضعته "فاطمة بنت المثنى" خطاب ضمني موجه، يسعى إلى "بذر نبوءة إرسادية تشي بما سيكون عليه المتن"⁹، إنها تجربة صوفية ليست متشككة و لا هوية ثابتة، بل بطبيعتها تجربة نامية و متطورة و مع هذا التطور الصاعد في مقامات روحية متتابعة، يطالعنا "محيي الدين" عبر مسار الحكيم عن لقاءه بأوتاده الأربعة الذي لم يكن ليحصل إلا بعد أن يوفق في الإختبار الترشيحي الذي غايته تزكية النفس و تطهير القلب عند أهل التصوف ابتداءً، ثم في بحثه على مدى الحكاية، عن أوتاده الذين يشنون قلبه "أصدقني يا إسحاق و نحن في هذا المسجد الحرام. هل أنت من أوتادي؟

- لا سيدنا، أين أنا من الأوتاد الكرام !

- و لكن الأوتاد لا يعرفهم إلا أوتاد مثلهم .

- صدقت. و أنا لا أعرف وتدّاً، و لكن أعرف أنك موتود . فقط .

- تربّعت و قد اتّسع الصف مع انصراف المصلين و قلت له :

- لقد مات وتدي الثاني قبل أن ألقاه فلقيت ورثته ...

بدا الاهتمام واضحاً على ملامح إسحاق و هو يصغي إليّ فأكملت :

- و لكن لم يبلغني أين أجد وتدي الثالث.

- و يقلقك هذا؟

- إن لم يقلقني مثل هذا فما الذي يقلقني يا إسحاق ؟

- يا محيي. أنت لا تجد الوتد، هو الذي يجذك .

- كيف؟

- لأن تثبيتك هي مهمته. إن وتدك يجذّ في البحث عنك أكثر مما تجذّ في البحث عنه. و لن يستدلّ عليك حتى يكون قلبك أظهر ما يكون.

يضيء إسحاق طريقي مثلما تضيء القناديل مسالك الغبراء"¹⁰.

نلاحظ أن مبدأ "القصديّة" في المتن الروائي، يعتبر من أهم العناصر غير اللغوية التي يشتغل عليها الكاتب لإخراج الفعل الكلامي إلى حيز الأداء اللغوي، خصوصاً في علاقته بالمعجم الصوفي و خصوصيته، فالقناديل هنا لا تقتصر في كونها إحالة إيقونية على الضوء بوصفه وجوداً و مرجعاً خارجياً، و إنما تتعدى ذلك لتتحول إلى رمز

Symbol بمفهوم بيرس السيميائي، و وسيلة فهم بالنسبة للشخصية البطلة في ارتقاءها الروحي الإيماني، لتتواصل هذه المعرفة - الفهم - و تتزايد خلال علاقة الاتصال بين شخصية البطل ابن عربي و صديقه اسحاق في مكة الذي آنسه قرابة سنة و نصف، و هو الذي يقول عن هذه الرفقة كان يقرأ في مثل كتاب مفتوح .

إن قبضة الكاتب محمد حسن علوان في مؤلفه، تكمن في الطاقة الإبداعية التي يمتلكها، والحرية التي يتمتع بها، وهو يكتب فنياً تجربة روحية استثنائية لحياة الفيلسوف محي الدين ابن عربي، منذ ولادته في الأندلس في منتصف القرن السادس الهجري، حتى وفاته في دمشق. إن الكاتب عبر هذه الرحلات يقدم سلاسة في سرد الأحداث وممتعة في قراءتها بشكل من الأشكال، من أجل صياغة صورة بطل لا يشبه الأبطال، له نبرته التلفظية التي تمتع مضامينها من المخيال الصوفي، و فوق ذلك حسب تعبير ميخائيل باختين " يكون التجابه حوارياً: وجهة نظر ضد وجهة نظر، نبرة ضد نبرة، تهمين ضد تهمين. هذا الارتباط و هذا الإتصال الحوارى بين لغتين، و منظورين، يسمح لنية الكاتب أن تتحقق بطريقة تجعلنا نحسها بتميز في كل لحظة من لحظات الرواية "11، أما نحن كقراء لهذا المتن يمكننا من مرافقة و رصد بعض المشاهد الحوارية و البحث في أبعادها الدلالية وفق التصور الآتي:

1.3. البعد الحجاجي Dimension argumentative:

إن تحليل الخطاب القصصي في شقه الحجاجي، يتأسس بدءاً من النسق الذي صيغ ضمنه هذا الحجاج، و " البعد الحجاجي من مصطلحات تحليل الخطاب بما في ذلك الخطاب القصصي القائم على التخيل. و هو وليد تصوّر لا يقصر أصحابه الحجاج على تقديم حجج تدعم أطروحة أو دحضها، و إنما يرون أنه من الممكن النظر إلى الحجاج من زاوية أوسع و فهمه بوصفه خطة تستهدف التأثير في رأي شخص ما و في موقفه و حتى في سلوكه. و هي خطة تتوسل إلى التأثير بأدوات الخطاب وحدها "12. و هي الخطة ذاتها التي اعتمدها محمود حسن علوان في الحوار الذي كان يجريه على ألسنة الشخصيات، خصوصاً تلك التي تعتمد على لغة الإقناع، على نحو ما نجده في الحوار الذي دار بين ابن عربي و أبي العباس الحريري في ضيافة الترجمان فريدريك :

" قدم لنا فريدريك نبداً، أخذت الكأس في حين تردد الحريري قليلاً ثم أخذه تقليداً لي. رشفة منه رشفةً فلاحظت ارتباكاً و حيرته . أنهيت شرابي و الحريري بعد لم يُدِنه من فمه. التفتُ إليه أخيراً و قلت له:

- ألن تشرب ؟

- أخاف ؟

- ممّ تخاف ؟

- أن يقبضني الله و أنا على معصية .

- و لكنك لست على معصية ؟

- و كيف هذا ؟ أليست الخمر محرمة ؟

- بلى. و لكنك مؤمن. و إيمانك متّصل و معصيتك متقطعة. فإن قبضك الله سيقبضك على الإيمان فتكون خاتمتك حسنة .

- حقاً؟

- أجل.

- قرب الحريري الكأس من فمه و شرب قليلاً. نظر إلى عينيّ فأومأت إليه بالتشجيع. ابتسم و ابتسمت، و ارتسمت على وجهه ملامح اللهو فشرب كأسه كله.¹³

يتضح مما تقدم في المشهد السابق، وجود ألفة خاصة و لغة إيمائية بين ابن عربي و الموجودات التي من حوله، و هي علاقة تخترق المألوف من شؤون الخاصة من أهل التصوف، فإذا كانت الحمرة عند ابن الفارض التي يناجي فيها محبوبه، الخالق، في لحظة تجلٍ نادرة :

شَرِينَا عَلَى ذِكْرِ الْحَبِيبِ مُدَامَةً سَكِرْنَا بِهَا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُخْلَقَ الْكَرَّمُ

لَهَا الْبَدْرُ كَأْسٌ وَهِيَ شَمْسٌ يُدِيرُهَا هَلَالٌ وَكَمْ يَبْدُو إِذَا مُزِجَتْ بَحْمٍ

وَلَوْلَا شَذَاهَا مَا اهْتَدَيْتُ لِحَاثِهَا وَلَوْلَا سَنَاها مَا تَصَوَّرَهَا الْوَهْمُ

وَلَمْ يُبْقِ مِنْهَا الدَّهْرُ غَيْرَ حُشَاشَةٍ كَأَنَّ خَفَاهَا فِي صُدُورِ النَّهْيِ كَثْمٌ¹⁴

فإن الأمر يختلف عن الحمرة في "موت صغير" التي أضفى الكاتب في مجلسها فسحة من اللهو. و في اعتقادي أن محمد حسن علوان لم يوفق فنياً في تشكيل مجلسها، لكي يتلقاه القارئ من مظاهرها التخيلية، خصوصاً عند المتلقي العادي الذي يرصد باستغراب دعوة ابن عربي رفيقه الحريري أن يرتشف الخمر، فكيف لذلك أن يحصل؟ و هو الذي يريد أن يصير ولياً يطلب العلم و ينثي الركب و يلزم الشيوخ، لكن للكاتب خطة في احتواء هذا الموقف عبر نص تواصلتي إقناعي لافت، يستند فيه ابن عربي إلى جهاز مفهومي خاص لحمل الحريري على قبول طلبه، "ملاً فريدريك كؤوسنا مرة أخرى فشرينا. سألني الحريري:

- من أفتاك بهذا الإيمان المتصل و المعصية المتقطعة ؟

- لم يُفتني أحد . كشف الله لي ذلك كشفاً

جرع الحريري بقية كأسه الثالثة و قال :

- عجباً ! لم يكشف الله لي ذلك و أن معك في كل حلقة و درس!

- إنما الكشف على قدر العارف¹⁵.

فالمرتکز الحجاجي الذي اعتمد عليه الكاتب عبر هذه الحوارية، هو رسم روح البيئة الأندلسية السمحة و النفس الرضيّة في الجدل و الحوار، إنه ابن عربي الذي كان يرد على مناوئيه عبارته الشهيرة " لقد أخطأ عقلك و لم يخطيء إيمانك "، لكن صديقه الحريري في الجهة المقابلة الذي يسأل في ملابسات بناء القول: من أفتاك بهذا الإيمان المتصل و المعصية المتقطعة ؟ يأتيه الرد من الراوي البطل بأنه "كشف"، طبعاً عند أهل التصوف. و إذا كان تحقيق الإقناع الحجاجي شرطاً ضرورياً للفعل التداولي، فإن الأمر لا يستقيم بالنسبة لصديقه الحريري الذي صاحبه في كل حلقة و درس، إننا أمام اللحظات الأولى لفعل السرد و فعل الدهشة، إنه فعل سردي يستدعي تداخلا في مستويات الوعي، و قد أدرك الكاتب هذه المعادلة جيداً، لأن المتكلم في المتن " يعرف أقدار المعاني و يوازن بينها و بين أقدار المستمعين و بين أقدار الحالات فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاماً، و لكل حالة من ذلك مقاماً، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني، و يقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات، و أقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات "16 وفق هذا التصور يأتي رد ابن عربي بالقول "إن الكشف على قدر العارف".

2.3. البعد العرفاني Dimension cognitive :

إن المحفز الموضوعي الذي تحمله مثل هذه النصوص في بعدها العرفاني " يتعلق بشئ أشكال المعرفة الصادرة عن ذات قادرة على تأويل ماهو قائم من أحوال الذوات الفاعلة في علاقتها بمواضيع الفعل في عالم القصة "17، لتتجلى عبر مستويات لغوية متعددة، نذكر منها: مراعاة أحوال الشخصيات داخل العمل الإبداعي من حيث السن والمستوى الثقافي والدلالة الوظيفية والحيز الذي تشغله كل شخصية في النص، وتتجلى هذه المستويات أيضا في حركة الشخص في المكان والزمان وفي علاقتها بالحدث.

وفق هذا التصور يمكننا القول بأن اللغة بانزياحاتها الدالة في رواية موت صغير، تتيح للمتن أفق يتحدى الانغلاق والآنية، و يحقق له سبق والتميز في بعث وتحويل تلك المراجع فنياً ومعرفياً، حتى تتجاوز الإحتباس الموضوعاتي الذي وقعت فيه الكثير من الأقلام الروائية، متأرجحة بين سياقات الواقع وأصدائه الإيديولوجية. إن التجريب في موت صغير هو بحث متواصل في مظاهر الخطاب و المعرفة التي تهز القارئ وتدعوه إلى التأمل، وليس هناك أبلغ من وسائل التمثيل، ذلك السرد الذي يكشف لنا تلك اللحظات، التي نتعرف على جانب من أصداءها في الحوار الذي جرى بين ابن عربي وشخصية الحصار وتده الثاني حيث يقول " اكتشفت طيلة حوار معه أنه لا يميل للعلوم الصوفية ولا الفلسفية. وإن حدثه فيها سمعها مني مجاملةً وأدباً ثم لا يسألني عنها ولا يستزيد منها. تنحنحت ثم قلت:

- اعلم يا رفيق دربي أنه توجد في الطبيعة ثلاث قوى غيبية: الوحي والعقل والقلب.
- هزّ رأسه وقد بدا عليه الاهتمام وأنصت فتابعته كلامي مختصراً إياه قدر المستطاع:

- فإن مال المرء جهة الوحي صار ظاهريًا. وإن مال جهة العقل وحده صار فيلسوفًا. وإن مال جهة القلب وحده صار صوفيًا.
 - ألا يمكن أن يميل إليها كلها ؟
 - إن أرادها كلها فلا بدّ له أن يبني جسورًا بينها.
 - وكيف يبني هذه الجسور ؟
 - بين الوحي والعقل لا بدّ من جسر التفسير. وبين الوحي والقلب لا بدّ من جسر التأويل.
 - وماذا بين العقل والقلب ؟
 - بين العقل والقلب لا بدّ من جسر الحب.¹⁸
- تلك هي المواقف الأولى التي تحدد أشكال تحيين القيم وتداولها وتلقيها داخل المتن الروائي، فالوصف والتعليق والمعرفة الملفوظية التي يتكفل السارد بتوزيعها، ما هي إلا تمهيد لدخول الشخصية إلى مسرح الأحداث، تلك الشخصية التي " توقظ القدرة التأويلية للتفكير الإنساني في مواجهة مجاهيل الكون وخفايا الإنسان وحقيقة الخالق عز وجل وسبيل الوصول إليه "¹⁹.

3.3. البعد الوجداني Dimension emotional :

إن الحب في موت صغير هو البؤرة التي تتجلى فيها و عبرها الذوات في أبهى صورها، إنها تتجاوز متعة الجسد في بعده الإيروسى، إلى حوار نعاين فيه الحدس الجوّاني و الشعور الداخلي، الذي يخالف أفق توقع القائلين بأن رجل التصوف هو إنسان يسعى في حياته بين الذكر و الفكر، و هنا نستحضر، نموذج من الحوارات التي جرت بين محيي الدين وحبيبته نظام، وتد الحب والعشق، حيث يقول السارد " مازحتني ذات درس ونحن نقرأ تراجم لسير بعض المحدثين وفخر النساء غائبة في غرفتها، فأغلقت الكتاب وقالت لي :

- يا محيي، هب أنك ترجمتني يوماً. ماذا ستكتب في سيرتي؟
- فصمتُ هنيهة واستغرقت في التفكير ثم قلت ببطء:
- سأقول إنك نظام قرة العين بنت المحدث أبي شجاع زاهر بن رستم الأصفهاني. ولدت وعاشت في قلب محيي الدين بن عربي ولا تموت فيه قط. عذراء هيفاء تقيد النواظر وتزين المحاضر. عالمة عابدة. ساحرة الطرف. إن أسهبت أتعبت وإن أوجزت أعجزت وإن أنصحت أوضحت.
- ضحككت وأسندت ذقنها على يدها وكأنها تنتظر المزيد. تأملت حسننها لأستزيد منه كلاماً يليق بها وقلت :
- إذا اشتبهت العلم حدثني وحدثتها فلم أجد لعلمها نظيراً إلا علمي ولا لعلمي شبيهاً إلا علمها. كيف لا وهي ربيبة الحرمين وتربية البلد الأمين.²⁰

يضيء الحوار الدائر بين ابن عربي وحيثيته نظام، فسحة من المتعة والحميمية، تنسجم وتتضافر مع البرنامج السردى لكلا الشخصيتين، حيث تقف نظام في طرف المشهد شخصية ملهمة لمشاعر وأحاسيس ابن عربي، في حين يقف ابن عربي في الطرف الآخر من المشهد يرتل في حبها أروع آيات الحب والشوق، هي أشبه بخطاب متنفس محرك لخلجات الأنفس، دافعاً الأحداث نحو الاستمرار والتواصل بما يحقق فعل التواجد الإنساني الخلاق، سواء في اكتشاف الذات للآخر أو مهارة الإصغاء إليها "ضحكت وأسندت ذقنها على يدها وكأنها تنتظر المزيد. تأملت حسناتها لأستزيد منه كلاماً يليق به".

إن الحكى في بعده الوجداني إغراء ومقاومة واستدرج نحو عوالم تمنح الإنسان الطمأنينة والدفع بعيداً عن صقيع الواقع، و "موت صغير" عمل فني يخلق بعيداً ضمن هذه العوالم وهو يثير تجربة حب إستثنائية لأشهر المتصوفين محيي الدين بن عربي " رفعت عيني بعد أن انتهيت من كلامي فإذا عيني نظام مغرورقتان بالدموع وعلى وجهها ابتسامة واسعة محشوة حباً. مدت يدها مفتوحة فاقتربت منها و تماسست يداها. ضغطت على يدي و راحت تفرك أصابعها في راحتي وكأنها تريد أن تبقي في يدها شيئاً من جلدي. ثم رفعت يدي إلى وجهها و شمتها بعمق و أبقت أنفاسها في صدرها لوهلة . ثم أغمضت عينيها و زفرت زفرة طويلة . ثم اغرورقت عيناها بالدموع و قامت فعرفت أن وقت خروجي قد حان " ²¹.

تلك هي إذن، مسارات التجربة الإنسانية بهواجسها المعنوية - إقبال و إدبار - الذي لا يُخلُ بفاعلية التجربة الروحية عند محيي الدين ابن عربي في موت صغير، إنها رحلة تجعلك تنصت بحواسك و بروحك الخاصة لخلجات الأنفس في حركاتها و سكناتها، تفاصيل مليئة بالدهشة والغربة والترحال والحب، هذا الأخير الذي شكل قيمة أساسية في مسيرة ابن عربي الممتدة، حب الناس والمخلوقات و حب الله عز و جل، بديلاً لخطاب الكراهية والحقد والبغض و هيمنة التعصب الديني، بمختلف أشكاله العنيفة، إنه الحب الذي أشعلته نظام في صدر ابن عربي كمصباح رأى في ضوئه زوايا في القلب لم يراها من قبل، نلمح صداها مرة في رحلته المتعددة و مرة أخرى عبر الخطاب و مضامينه التي لا تنفتح إلا في منتصف الرواية، حين يقول السارد "الرب الإلهي لا ينفصل عن الديني".

4. خاتمة:

و ختاماً تعتبر التجربة الروائية لمحمد حسن علوان في تحوير سيرة ابن عربي وفق مقتضيات الكتابة الروائية المعاصرة، دليلاً على أصالة التجربة و الرغبة في بعث تصور فني جديد، من خلال الصوت السارد و المراجع المحال عليها داخل المنجز الإبداعي "موت صغير"، مما أكسبها شكلاً مختلفاً في البناء و مضموناً متميزاً فكرياً و فنياً، حتى تعود للتجربة الروحية لابن عربي ذلك الوجود الفاعل داخل ذواتنا، بأدوات صقل راقية.

و لعل أهم ما يمكن تعيينه من نتائج في هذه الورقة البحثية، نذكر النقاط التالية:

- 1- إنَّ اشتغال الخطاب الروائي على المتن التراثي، خاصة في بعده العرفاني، أصبح مبلغ كل كاتب طموح يريد أن يطرق باب العالمية، و لعل رواية **موت صغير** للكاتب السعودي محمد حسن علوان التي قمنا بفتح أفقها السردية هي نموذج لهذا التحول في الكتابة الروائية العربية.
- 2- لقد انتبهتُ - و أنا أنصت إلى موت صغير - أن التجربة الروحية التي يثيرها محمد حسن علوان في المتن الروائي ليست مجرد تجربة في النظر، و إنما هي أيضاً تجربة في الكتابة، خصوصاً عند الروائيين العرب الذين حاولوا صياغة مضامين تلك الإشارات بين الصوفي (ابن عربي) و عالمه الخارجي بلبوس فني، اقتداءً بمسيرة الرواية في الآداب الأخرى .
- 3- يتميز السرد في موت صغير بقدرته على احتواء التجربة الروحية للإمام الأكبر محي الدين و مختلف العلاقات التي ينسجها مع باقي الشخصيات، و قد وُفق الكاتب فنياً في تقديم تلك الشخصيات، نذكر منها "نظام" و تد الحب و العشق التي أحبها "ابن عربي" عبر خطاب وجداني فيه أنس و لذة، يمنح للروح في عرف الصوفيين صحتها و جمالها و إحساسها بخالقها.
- 4- أعتقد أن لغة الكاتب محمد حسن علوان قد أسعفته في تسريد التجربة الروحية لابن عربي، نحو أوضاع جديدة، نكتشف جانباً منها، في الحوار الذي جرى بين "ابن عربي" وشخصية "الحصّار" وتده الثاني، حيث تركز على تفسير و اكتشاف الواقع من وجهة نظر العارفين، بما يحقق المعرفة الروحية و يثير المتعة الفنية .
- 5- إن التجربة العرفانية هي رحلة و سفر في المعرفة، يتوحد من خلالها العارف و المعروف لتحقيق ثمرتها، أما نقل هذه التجربة رغم ثقلها نحو الأدب، فيحتاج إلى صُنعة لها مقدرة في التوحيد بين النصوص.

الهوامش :

- ¹ - محمد شقير، فلسفة العرفان، دار الهادي للطباعة و النشر و التوزيع، ط1، 2004، ص 81.
- ² - كلود عدّاس، ابن عربي سيرته وفكره، ترجم: د. أحمد الصادقي، مراجعة وتقديم: د. سعاد الحكيم، دار المدار الإسلامي، ط1، أيلول/سبتمبر 2014، ص 9.
- ³ - كلود عدّاس، ابن عربي سيرته وفكره، ص17.
- ⁴ - محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، ط2، بيروت 1987، ص 254.
- ⁵ - محمد بن الطيب: وحدة الوجود في التصوف الإسلامي، دار الطليعة للطباعة و النشر، ط1، بيروت، 2008، ص5.
- ⁶ - فان دايك، النص و السياق، ترجمة: عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق - المغرب، 2000، ص 195.
- ⁷ - محمد حسن علوان، موث صغير، دار الساقى، بيروت ، لبنان، ط1، 2016، ص 25
- ⁸ - محمد حسن علوان، موث صغير، ص 42.
- ⁹ - عبد الله إبراهيم، المتخيل السردية، المركز الثقافي العربي ، ط1، حزيران 1990، ص 108.
- ¹⁰ - محمد حسن علوان، موث صغير، ص 359.

- 11 - ميخائيل باحثين، الخطاب الروائي، تر: محمد برادة، دار الفكر للدراسات و النشر و التوزيع، ط1، القاهرة 1987، ص 83.
- 12 - مجموعة من المؤلفين، معجم السرديات، إشراف محمد القاضي، دار محمد علي للنشر، تونس، ط1، 2010، ص 52.
- 13 - محمد حسن علوان، موت صغير، ص 115.
- 14 - ديوان ابن الفارض، دار صادر، بيروت، ص 140.
- 15 - محمد حسن علوان، موت صغير، ص 115.
- 16 - الجاحظ، البيان و التبيين، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجليل، بيروت، ج1، ص 92.
- 17 - مجموعة من المؤلفين، معجم السرديات، إشراف محمد القاضي، ص 55.
- 18 - محمد حسن علوان، موت صغير، ص 263.
- 19 - ناهضة ستار، بنية السرد في القصص الصوفي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2003، ص 18.
- 20 - محمد حسن علوان، موث صغير، ص 335.
- 21 - محمد حسن علوان، موث صغير، ص 335.

قائمة المصادر و المراجع:

- المصادر :

1. محمد حسن علوان، موث صغير، دار الساقى، بيروت ، لبنان، ط1، 2016.
2. كلود عدّاس، ابن عربي سيرته وفكره، ترجم: د. أحمد الصادقي، مراجعة وتقديم: د. سعاد الحكيم، دار المدار الإسلامي، ط1، أيلول/سبتمبر 2014.
3. الجاحظ، البيان و التبيين، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجليل، بيروت، ج1.

- المراجع :

1. ناهضة ستار، بنية السرد في القصص الصوفي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2003.
2. ميخائيل باحثين، الخطاب الروائي، تر: محمد برادة، دار الفكر للدراسات و النشر و التوزيع، ط1، القاهرة 1987.
3. محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، ط2، بيروت 1987.
4. محمد شقير، فلسفة العرفان، دار الهادي للطباعة و النشر و التوزيع، ط1، 2004.
5. محمد بن الطيب: وحدة الوجود في التصوف الإسلامي، دار الطليعة للطباعة و النشر، ط1، بيروت، 2008.
6. مجموعة من المؤلفين، معجم السرديات، إشراف محمد القاضي، دار محمد علي للنشر، تونس، ط1، 2010.
7. عبد الله إبراهيم، المتخيل السردى، المركز الثقافى العربى ، ط1، حزيران 1990.
8. عبد الله إبراهيم، المتخيل السردى، المركز الثقافى العربى ، ط1، حزيران 1990.